قصائدَ من هذا النوع، لكنّي لم أكن أتمعّن فيها من منطلق هذا السؤال. إذن، الشعر في حدّ ذاته احتجاجٌ، ولكنْ في كلّ مرة وفي كلّ فترة على شيءٍ ما.

غير أنّي عندما تأمّلتُ ثانيةً في أشعاري وأشعار الآخرين، توصّلتُ إلى الجواب الأكثر أساسيةً؛ إذ رأيتُ أنّ الشعر تعبيرٌ عن أشياء لا يُعَبَّر عنها إلاّ بلغة التلميح والتصوير. هنا يَنْفصل الشعر عن النثر تمامًا، خاصةً أنّ ما يودّ الشاعرُ قوله لا يستحقّ كما قال بورخيس الاهتمامَ مقارنةً بما يَرِدُ في الشعر. فالشعرُ قولُ ما لا يقال، ولا يُمْكن سردُ مغزاه. أما محاولة البنيويين الحطّ بالشعر إلى مستوى مضمونٍ في سطرٍ واحد، فهي محاولة فاشلة لا جدوى منها؛ ذلك أنّ الشعر ليس رسالةً مشفّرةً في صيغة كلمات. الشعر في أرقى مستوياته شيءٌ فني، شيءٌ يُنْجز بالكلمات. هنا لا يُمْكن التمييزُ بين الشعر واللوحة أو التمثال أو المقطوعة الموسيقية. وصعوبة ترجمة الشعر تَكْمن في هذا الأمر، ولا أريد هنا أن أخوض في هذا الموضوع الذي يتطلّب الاستفاضة؛ فلا أراني ناسيًا أنّي نوّهتُ في بداية هذه الشهادة بأنّني لا أقصد التنظير. لكنّي لا أظنّ أنّه يمكن شرحُ معنى القصيدة التالية أو التعبير عمّا يدور فيها بلغةٍ غيرِ لغة الشعر.

الغروب

هي قادمة
بشَعْرِها الأصفرِ النبيذي
وعينيها المضطربتيْن المائلتيْن
وتلك النظرة الباردة المُنْحَدِرة.
عَرَبَتُها،
حيثما مرّت،
تنثُر الحزنَ والياقوتَ والرّماد.
وذكرياتُها النيِّرة عن النّهار،
والتي ترويها بين الحين والحين،
تُهْديني اللّيْلَ
في قرارتي.
عَجَلَتُها المُثْقَلة بالظلال التي التَقَطَتْها من كلّ ناحية
وعلى عَجَل
على كلّ حدبٍ وصوبٍ مِنّي تُغير
لتلتقط ظِلّي
وفي الصرخة الصامتة لجلاجلها
ينطفئ
لهيبُ أيّ لون.
تَمرُّ،
وكلُّ ما هو كائنٌ
يلبثُ في مكانه ثانيةً
وكأنّه لم يكن.

لكن، ثمة ملاحظة لم أُشِر إليها بعد. إذ ينبغي تلقّي الجواب النهائي من العالم. هل سمعتم شَدْوَ الطيور صباحًا على أفنان الشجر؟ ما هي تلك الحاجة إلى تُرغم الطيرَ على الشَّدْوِ والصُّداح؟ أليس بمقدوره الطيرانُ من غصن إلى غصن دون شَدْوٍ وغناء؟ ألا يكفيه أنّه طائر وحسب؟ هنا تبدأ الحيرة. فالشعر حاجة المرء، حاجةٌ هي الغناءُ والغناءُ ذاته. وهذه الحاجة لا حاجة لها بالدليل والبرهان.

الشعر هو المُمْتِع، هو التحرُّر، هو الخلاص، هو الاحتجاج، وهو التعبير عن شيء لا يُمْكن التعبير عنه نثرًا. وكلُّ ذلك غناءُ المرءِ وحاجته.

آخر ٢٠٠٣

(خصيصًا لـ الآداب)

ملفات الآداب القادمة:

- **الشباب والسياسة.**
- **ملف الرقابة العربية (٤): أبحاث وشهادات متنوّعة.**
- **العروبة بعيون أمازيغية.**
- **السودان بعيون مصرية.**
- **الجزائر بعيون مغربية.**